

نهاية مروان الثاني

الواقع أن انهماك مروان الثاني في إخماد الثورات والفتن شغله عن الاهتمام بما كان يجري في المشرق خاصة في خراسان التي كانت مركزاً للدعوة العباسية. وقد انتشرت في المنطقة انتشاراً واسعاً، واستقامت الأمور فيها لبني العباس، مما أدى إلى اقتناع الدعاة العباسيين بأن الوقت قد حان للجهر بها. وفعلاً حصل هؤلاء الدعاة على موافقة إبراهيم الإمام، الذي كان يعيش في الحميمة على الجهر بالدعوة والخروج على الأمويين. وقد تولى أبو مسلم الخراساني، الذي أضحى رئيساً للدعوة في خراسان، أخذ البيعة تحت شعار البيعة إلى الرضا من آل محمد.

أدرك نصر بن سيار، عامل مروان على خراسان، ما يشكله أبو مسلم من خطر على الدولة الأموية، فبعث برسالة عاجلة إلى دمشق يشرح فيها حالة الفوضى التي سادت خراسان، وخطر أبي مسلم الذي كان يتزايد يوماً بعد يوم، ويطلب مدداً من الخليفة.

ويبدو أن مروان كان عاجزاً، آنذاك، عن إجابة طلب واليه، ولم يستطع أن يفعل شيئاً سوى أن يمينه بالوعود، ويزوده بالنصائح، مما أتاح لأبي مسلم السيطرة التامة على خراسان، ولم يتمكن نصر من الصمود أمامه فتقهقر إلى نيسابور ومعه أنصاره من العرب الذين هربوا من خراسان.

ثم حدث أن انتقلت القيادة العباسية العليا في العراق إلى قحطبة بن شبيب الطائي وهو عربي، الذي سارع إلى الاصطدام بقوات نصر وتغلب عليها وأجبر نصراً على ترك نيسابور حيث قصد الري، وفيها وافته الإمامة التي بعثت بها الخلافة بعد أن أدركت خطورة الوضع، وضرورة مساندة صمود نصر، فابتدأت بذلك جولة أخرى من الاصطدامات كان النصر فيها حليف القوات العباسية. ومات نصر بن سيار بالري في شتاء عام (١٣١ هـ / ٧٤٨م) بعد وقعة أصفهان في جو الهزيمة القاتم.

ثم اتجه قحطبة نحو العراق ليصطدم بالقوات الأموية بقيادة ابن هبيرة، والي مروان على العراق، وتغلب عليها وهم بدخول الكوفة إلا أنه عرف وهو يعبر نهر الفرات. ودخلت القوات العباسية المدينة بقيادة حميد بن قحطبة في (شهر ربيع الأول عام ١٣٢ هـ/ شهر تشرين الأول عام ٧٤٩ م) وسلم الأمر إلى أبي سلمة الخلال الذي أضحى وزير آل محمد.

وبويع في الكوفة لعبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس المعروف بأبي العباس، وقد كان أخوه إبراهيم الإمام قد عهد إليه بأمر الدعوة عندما قضى عليه مروان الثاني آنذاك بعد ما اقتضح أمره؛ ليصبح أول خليفة عباسي.

وبعد أن تم له الأمر في العراق أرسل جيشاً، بقيادة عمه عبد الله بن علي، التقى بجيش مروان الثاني على نهر الزاب، وهو أحد فروع نهر دجلة. وكانت الانتصارات التي حققتها الثورة، حتى ذلك التاريخ، قد أضعفت معنويات الجيش الأموي، فأحجمت بعض وحداته عن خوض المعركة ومنها الوحدات اليمينية، ربما بدافع العصبية من جهة ومن التأخير في دفع مرتبات الجند من جهة أخرى، وعصت هذه الوحدات أوامر مروان في تلك اللحظة الحركية.

ودارت بين الجيشين الأموي والعباسي رحى معركة عنيفة في (شهر جمادي الآخرة عام ١٣٢ هـ/ شهر كانون الثاني عام ٧٥٠ م) استمر أحد عشر يوماً انتهت بهزيمة مروان الذي انسحب بعد المعركة باتجاه الموصل، لكن المدينة أغلقت أبوابها في وجهه مما دفعه إلى الانسحاب نحو حران مقره السابق، إلا أن الجيش العباسي ظل يطارده. فانسحب إلى حمص فدمشق فالأردن ثم فلسطين. وكانت المدن في هذه البلاد تفتح أبوابها للجيش العباسي باستثناء مدينة دمشق التي دخلها العباسيون عنوة.

وعهد عبد الله بن علي إلى أخيه صالح بمطاردة مروان، بعد أن تجاوز الشام. ووصل مروان في غضون ذلك إلى مصر بعد أن تخلى عنه أنصاره وتوقف في قرية بوصير الصغيرة في منطقة الفيوم حيث داهمته في الليل قوة عسكرية. وقاوم مروان حتى خر صريعاً، وانتهت بمقتله أيام دولة الخلافة الأموية، وكان ذلك في عام (١٣٢ هـ/ ٧٥٠ م).

وهكذا أسدل الستار على حياة أسرة حكمت دولة الإسلام ما يقرب من قرن من الزمن، حققت خلاله لأمتنا الإسلامية ما لا يمكن حصره من منجزات وعطاءات في مختلف ميادين الحياة.

ويمكننا أن نعتبر أن العصر الأموي، هو العصر الذي تبلور فيه وعي عربي ظل متمكناً طالما احتفظ العرب بموقع السيادة في المجتمع.

